وثانيه ارضاء القيم. وثالثهُ استعداد للامراض المستقبلة. وقد قيل: في المعدة مستودع داء النقطة النجاني — وللصوم اوقات معيَّنة في السنة تجيء غالبًا في فصل الربيع فهو يُريح المعدة من اشغالها ويخفِّف احمالها ويطهِّر فسادها وبعد الصوم تقوى شهوة الطعام وتسهل الافعال الهضميَّة وتشتدُّ الصحَّة العموميَّة. والخلاصة انَّ من اكل فهضم عاش عيشة هنيئةً

اما كون الصوم فائدة اقتصاديَّة فذلك امر اوضح من النهار. او ليس من القواعد المقرَّرة ان الاقتصاد والتوفير هما اصل الغنى الحقيقي المتين سواء كان عند الاشخاص الافراد او عند الشعوب. والحال ان الاقتصاد والتوفير يستوجبان القناعة والتقتير وبالتالي الصوم. انظر ترى مثلًا كيف غلت في بلادنا اسعار اللحوم بعد ان كانت رخيصةً بجملة الاثمان وما ذلك الَّا لتوفُّر عدد آكلي اللحوم. ويا ليت الصحَّة بذلك تحسَّنت. بل ترى بعكس الامر اهل الجبل الذين يقلُّون من اكل اللحوم اقوى بنيةً واشدّ صحَّةً وهم يكتفون بالقليل لا تكاد ترى فيهم فقيرًا مدقعًا

والنتيجة من جميع ما ذكرنا ان القواعد الدينيَّة في الصوم تقرَّرت وغايتُها الصالحُ العمومي الصحي والاقتصادي والقصد منها تقدُّم الشعوب الدينيّ والمادّي والادبي ومن اتَّبعها اتبع الهدى

تاريخ فنّ الطباعة في المشرق

نبذة للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع لما سبق)

فنّ الطباعة في الشام

١ قزحيَّا

(يُجعَل تاريخيّ في قزحيَّا) قزحيَّا من اشهر اديرة لبنان واقدمها عهدًا. موقعهُ جنوبيّ طرابلس وشمالي اهدن على مسافة ساعتين منها. بُني على اسم القديس اظونيوس الكبير ابي الرهبان. وهو يشرف على وادٍ عميق تسيلُ اليه المياه الزبدة من اعالي الجبال يُدعى وادي قاديشا اي وادي الابرار القديسين. ولا غرو فان هذا الوادي اصلح ما يكون

للعزلة والانفراد يحمل الزهّاد على نبذ الشواغل السفلية ويدعوهم الى الهذيذ في الامور العلويّة. ولمّا انتشرت العيشة الرهبانيّة في مصر ثمّ انتقل تلامذة القديس انطونيوس زعيم السيّاح الى انحاء الشرق استلفت لبنان انظارهم فأووا اليه وكثرت فيه بعد حين الاديرة والمناسك. ومما يدلُّ على ان وادي قاديشا صار مسكناً للرهبان الاقدمين كثرةُ مغاورهِ ومحابسهِ المنقورة بالصخر بايدي الزهّاد في قديم الزمن

وكان قزحيّا من جملة هذه المحابس التي نزل فيها السيّاح قديماً. ويقول المحدثون انَّ اسمهُ يدلُّ على اصلهِ هذا المقدّس فاشتقُّوهُ من السريانيّة (ﭐﻟﻘﺰﺣﻴﺎ ﺳﻨﺎ) اي الكنز الحيّ. لكنّنا لم نجد لهذا الاشتقاق ركناً متيناً لا سيما وان هذا العلَم يُكتب بالسريانيّة قوزحيّا (ﻗﻮﺯﺣﻴﺎ ﺳﻨﺎ) وقيزحيّا (ﻗﻴﺰﺣﻴﺎ ﺳﻨﺎ) ومعنى (ﺟﺒﺮﺍﺋﻴﻞ) بالسريانيّة النِّسر ولا نعلم أيوجد بين هذا المكان وحيوان النِّسر علاقةٌ ما. وقال الاب مرتين اليسوعيّ ان قزحيّا مشتقّة من (ﺟﺒﺮ ﺑﺴﻨﺎ) اي سأم الحياة دلالة على نفور الزهّاد من عيشة الدنيا. واوّل شهادة وردت فيه ذكرها الدويهي في تاريخ سنة ١٤٩١ قال (١ :« وفيها كانت وفاة الخوري جرجس الاهدني رئيس دير مار انطونيوس قزحيّا. . وخلفهُ تلميذهُ القس يوحنا ابن القس موسى القزحيّ فانتقل من دار مار يعقوب بجانب مزيت الى دير قزحيّا ». وفي تاريخ سنة ١٤٩٥ ذكر « ان القس بركات البقوفاني بنى محبسة مار ميخائيل بقرب قزحيا وكانت سابقاً مراحاً للمعزى فانفرد بها الى نهاية حياتهِ الطاهرة »

وزاد على ذلك الشمّاس انطونيوس ابن الشيخ ابي خطّار الشدياق من بيت الحاج عبد النور في تاريخ لهُ مخطوط يُحفظ في خزانة كتبنا الشرقية (ص ١١١) ما نصّهُ :

وكانت الفتنُ بين القس بركات وبين رهبان قزحيّا اوقاتاً. واوقاتاً يصير نزاع. وسكن هذه المحبسة حُبساء من بيت الرزّ من بقوفا وغيرهم واستقام الحال ماشياً الى ان خربت البلاد وخرب قزحيّا والمحبسة مدةً ما وبعد ذلك حضر ناس من قرية سمَر جبيل وسكن العوامّ منهم شركاء في العربة (٢ والكهنة منهم سكنوا الدير وارتسم منهم ثلثة مطارين مطران بعد آخر في قزحيّا واقتنوا لهُ اوزاقاً واستقاموا فيه مدّة سنين.

١) وقد ارتأى الاب مرتين اليسوعيّ ان اوّل رهبان قزحيّا اتوا من نتُّوبين فسكنوا هذه المحبسة في القرن الخامس عشر ٢) العربة قرية قريبة من قزحيّا

وحضرت بعد ذلك عيلةٌ من بكفيا يقال لهم بيت حبقوق وسكنوا مع الشركاء في الربة ثمّ دفعوا الى بيت السرياني اثني عشر كيساً لمقابلة اتعابهم في قزحيّا واخذوه منهم وسكنوا عوضهم وضبوا وعمّروا في رزق الدير واستقاموا مدّة سنين. وارتسم منهم مطران على الدير اسمهُ المطران عبدالله حبقوق وقضى حياتهُ في الدير. وقام بعده من عيلتهِ المطران يوحنّا حبقوق وسكن في الدير بعض سنين الى ان حضر الرهبان اللبنانيّون وعمّروا اديرة في الجبّة وغيرها. ولمّا رأى المطران يوحنّا اجتهاد الرهبان في عمارة الاديرة وعبادتهم وسلوكهم الحسن سلّمهم دير قزحيّا فسكنوا فيهِ سنة ١٧٠٨ وابتدأوا يعمّرون الدير وانشأوا لهُ جملة ارزاق في الجبّة وذاع صيت عجائبهِ حتى صارت تتقاطر اليهِ جميع المنكوبين بالاوجاع الصعبة من كافة الاقطار والامم من مؤمنين وغير مؤمنين من برّ الشام وحلب ومصر حتى البلدان الشاسعة البعيدة وتعاظمت ارزاقهُ واملاكهُ ومواشيهِ في الجبّة والزاوية والكورة وصار لهُ مداخيل وأهبة. ومن كثرة الزوّار صار عليهِ مصاريف زائدة توازي مدخولهُ. وفي هذه المدّة (اي سنة ١٨١٩) يسكنهُ رهبان جليلو الشأن لا سيما الرؤساء الذين يقيمون فيهِ (١ وكانوا جميعاً قدوة صالحة لمن يراهم وكانت دائماً القداديس والصلوات لا تنقطع عندهم ليلاً ونهاراً وعمّروا محبسة في رأس كرم جبتا تسكنها الحبساء. وكان ثلثة منهم يقيمون فيها ويقضون ايامهم في التقشّف والنسك والسيرة الملكيّة. وتعاظم شأن هذا الدير المبارك وتفاضلت سكّانهُ في النموّ والعبادة الى يومنا هذا وتدوم بعناية الله وتزيد ولا تنقص. رزقنا الله شفاعة هذا الدير المبارك ودعاء سكّانهِ الصالح امين »

(مطبعة قزحيّا) اوّل مطبعة دخلت بلاد الشام مطبعة قزحيّا في اوائل القرن السابع عشر الّا انّ اخبارها مجهولة لا يعرف من امرها شيئاً رهبان الدير الذين طلبنا

---

١) ومن الرؤساء الاقدمين الذين اهتمّوا بنا دير قزحيّا جبرائيل بن سنبتة الاهدني قال الدويهي في حقّهِ في تاريخ سنة ١٥٦٦ انّهُ «اقتنى املاكاً كثيرة لدير قزحيّا واكمل بناء القبو والدهليز والمجلس والطاحون التي على النهر. ثم همّ في توسيع الكنيسة التي في داخل الشقيف ولكنّهُ استصعب قطع الصخر فتراءى لهُ معلّمهُ الحيس يرنان وامرهُ ان ينشر الصخر من غير خشية وان يقيم ثلاثة مذابح على اسم السيدة واسم مار انطونيوس واسم مار مقاريوس قاطع الحيس وتمّ العمل سنة ١٥٧٥

منهم الافادات اللازمة. امّا وجود المطبعة في تزحيًا منذ ذلك العهد القديم فممّا لا شبهة فيه وكانت حروف هذه المطبعة سريانيّة وطُبعت فيها اللغة العربيّة بالكرشوني. على انّنا لا نعرف لهذه المطبعة الّا كتابًا واحدًا طُبع في تزحيًا سنة ١٦١٠ وهو كتاب المزامير طُبع على قطع كبير بعمودين سريانيّ فعربيّ عدد صفحاته ٢٦٠. وفي آخر المزامير الثامنة مزمورٌ خارج عن العدد وهو الـ ١٥١ لا وجود لهُ في التراجم الثامنة اليوم فلم تقبلهُ الكنيسة وانّما ذُكر في الترجمة السبعينيّة ونُقل منها الى السريانيّة والحبشيّة والعربيّة وقبلهُ بعض الآباء. وهذا حرفهُ كما ورد في الاصل مع اغلاطهِ الطبعيّة :

هذا المزمور هو لداود خصوصيًا دون عدد المزامير عندما انهُ حارب وحدهُ مع جلياد وقتلهُ (كذا) حينئذٍ قالهُ صغير (صغيرًا) كنتُ في اخوتي حدثًا في بيت ابي وراعيًا لغنمهِ. يداي صنعتا الارغن واصابعي عملتا (عملت) الكنار. من الآن اخذارني الربّ وارسل ملاكهُ واختارني من غنم ابي ومسحني بدهن مسحتهِ. اخوتي حسنين (حسان) واكبر مني لم يُسرّ بهم خرجتُ ملتقيًا للفلسطينيّ الغريب الجبّار نادعا (قدعا) عليّ بأوثانهِ. انا استللتُ (استللتُ) سيفهُ وقطعتُ رأسهُ ونزعتُ العار من بنو (بني) اسرائيل

وبعد هذا المزمور التسابيح المشهورة وفي آخرها بالسريانيّة صلاة مار افرام التي بدؤها: ظهر نورٌ للصدّيقين وفرح لمستقيمي القلب (...)

وفي صدر هذا الكتاب صفحة حروفها سريانيّة بلونين احمر واسود يحدق بها اطاران في وسطهما نقوش ناعمة. وفي اعلى الصفحة بحرف كبير البسملة وعنوان كتاب المزامير يليهِ شرحهُ بالعربيّة. وتحت ذلك شعارُ الطران سركيس الرزّي زعيم اساقفة دمشق على الموارنة وهو يمثّل ارزة كبيرة يستظلّ تحتها طير كالعنقاء وعند جناحيهِ

حرفان لاتينيَّان .S. N (Salus Nostra اي خلاصنا) ويجري عند جذع الارزة جدول ماء تلميحاً الى فردوس عدن (اعدن) وعلى جانبيها سنبلتان دلالة على الخصب . وقد كُتب حول هذه الصورة الرمزيَّة اسم المطران سركيس باللاتينيَّة وفوق الشعار صليبٌ مربَّع وقبعة الاساقفة اللاتينيين . وعلى جانبي هذا الشعار ما حرفهُ :

ارزة بلبنان لطول الدهر تلينا * وبنهر انعام من الشرق تلينا * في حضنها غيهب والدم يستينا * من صدرهِ الحياة وبجاهِ يبقينا * عندهُ شفيعٌ لنا بالديق (بالضيق) تنافينا * اذا استغثنا . ومن الديق (الضيق) تنجّينا * انظر مثالي واتأمَّل (وتأمَّل) معانينا * واجعل بهِ رجاك رجاء البحر والمينا

وفي اسفل الصفحة هذه الالفاظ :

بالحبس المكرَّم الكائن في وادي قوزحيا في جبل لبنان المبارك على يد المعلّم بكالي الي (Pascali Eli) وعلى يد الحقير يوسف ابن (بن) عيسى الكرمدّاني باسم شمّاس في تاريخ سنة اس ي (١٦١٠) ربأ (ربة)

وفي ختام آخر صفحة ما يلي :

انا الحقير بين المطارين المطران جرجس ابن (بن) عبره الحدثاني نظرت وتريت (وقرأت) هؤلاء (هذه) المزامير وما وجدت فيهم (فيها) شيئاً يضادد (يضادّ) الارثدوكسيَّة لكن نافعين (كذا) لخلاص كل من يقرأ فيهم (فيها)

قد اطلنا الكلام في هذا الكتاب (١ لعزَّة وجودهِ واهميَّتهِ لتاريخ الطباعة الشرقيَّة . وحروفهُ السريانيَّة كبيرة مُشرقة محكمة السبك مضبوطة بالحركات لم نجد من جنسها في المطبوعات الاوربيَّة القديمة . اما الحرف الكرشونيّ فهو عين الحرف المستعمل سابقاً في مطبعة انتشار الايمان في رومية . ولعلَّ الطبَّاع بكالي الي المذكور في صدر الكتاب هو الذي جلبهُ من رومية ولا يبعد ايضاً القول بأنَّهُ هو الذي صبَّ الحروف السريانيَّة

هذا وقد ذكر المطران اسطفان عوَّاد السمعانيّ (٢ في قائمة المكتبة اللورنتيَّة

---

١) والنسخة التي بيدنا تخصُّ جناب الاديب موسى صفير صاحب مكتبة المعارف

٢) راجع كتاب المطبوعات العربيَّة لشنورر Schnurrer : *Biblioth. arabica*, p.341

لآل مديسيس (ص٧١) انَّ المزامير طُبعت في دير قزحيا بالسريانيَّة والكرشونيَّة سنة ١٥٨٥ ترجمها من السريانيَّة الى العربيَّة جرجس مطران نيقوسية الماروني وطُبعت بهمَّة البطريرك سركيس الرزّي (١٥٨١—١٥٩٦) ويوسف كاثري (Katheri) من بيت السمعاني. وكرَّر هذا الخبر سمعان السمعانيّ في كتاب قائمة المخطوطات الشرقيَّة المحفوظة في المكتبة النانيَّة (Bibl. Naniana, p. 8)

على انَّ العلماء لا يعرفون شيئاً من امر هذه الطبعة القديمة ولعلَّ اسطفان عواد السمعاني نسب الى السنة ١٥٨٥ الطبعة التي وصفناها سابقاً فشُبِّهت عليه. وعلى كل حال لا نعرف احداً اطَّلع على هذه الطبعة القديمة او سمع بوجودها في احدى المكاتب. لاسيما انَّ الاب دنديني اليسوعي يذكر في رحلته الى لبنان سنة ١٥٩٥ (ص ٩٥) ان الموارنة ليس عندهم مطبعة ينشرون فيها كتبهم الطقسيَّة. فكيف امكنهُ ان يقول ذلك لو وجدت مطبعة قزحيا في عهده لا سيَّما انَّ الشماس يوسف كاثري الذي ذكرهُ السمعاني كان يصحبهُ في رحلته. والله اعلم

امَّا ما جرى لمطبعة قزحيا القديمة وكيف تضعضعت حروفها ولم يُطبع بها غير كتاب المزامير فذلك امر غريب لم يفدنا عنهُ احدٌ شيئاً. وما لا مرية فيهِ انَّ المطبعة الحالية هي غير المطبعة القديمة وحروف هذه غير حروف تلك

والمطبعة التي اشتهرت في عصرنا هذا في دير قزحيا اخذت في نشر الكتب في اوائل القرن التاسع عشر والذي اهتمَّ بتجديدها الاخ الفاضل سيرافيم حوقا (والفرنج يدعونهُ سوسن) البيروتيّ. وقد كتب لنا حضرة القسّ نعمة الله الكفريّ انَّ سيرافيم المذكور لمَّا استحضر المطبعة برسم دير قزحيا جعلها اولًا في دير مار موسى الدوَّار. ريثما يُيسَّر لها محلّ. وهناك طبع كتاب الشحيم الكامل كلهُ بالحرف الاسود. ثمَّ نقلها الى دير قزحيا[1]

وكانت حروف هذه المطبعة سريانيَّة عُني بصبِّها مديرها الهمام. وكان يريد ان يصبّ لها احرفاً عربية لكنهُ لم يتيسَّر لهُ سكبها ولم يُطبع بها شيء. (١

امَّا الكتب التي طُبعت في مطبعة قزحيا الجديدة فهذه قائمة ما حصلنا عليه منها

١) ومن هنا يتضح غلط صاحب الهلال في ما كتبهُ من تاريخ مطبعة قزحيا (٦: ٣٥٢) حيث قال: ان حروفها كانت اولاً سريانية ثمَّ صارت عربيَّة

بعد المراجعات الكثيرة والافادات التي تكرّم علينا بها حضرة القسين الفاضلين نعمة الله الكفري وبطرس ثابت وقد ذكرناها على ترتيب موادّها :

١ً كتاب القداس الالهي بالسرياني والكرشوني (طُبع اربع مرّات نعرف منهُ الطبعة الثانية سنة ١٨٣٨ والثالثة ١٨٥٥ والرابعة ١٨٧٣. وهو الكتاب الذي طُبع اوّلاً في رومية بامر البابا اقليمس الثامن في مطبعة آل مديسيس سنة ١٥٩٦ ثم جُدّد طبعهُ في مطبعة انتشار الايمان فطُبع مرّتين سنة ١٧١٦ و ١٧٦٣. وفي طبعات قزحيا ترجمتهُ العربيّة للسيد جرمانوس فرحات مع فصول الاناجيل لايام السنة) = ٢ً كتاب الشحيم (طُبع ١٨ مرّة نعرف تاريخ طبعتهِ الخامسة سنة ١٨٥٥ والاخيرة في ١٨٩٧ وكان طُبع قبلًا في رومية العظمى كاملًا سنة ١٦٢٥ بامر البابا بولس الخامس بعد ان عُني بفحصهِ كثيرون منهم الكردينال بلّرمين والاب بطرس المطوشي الماروني السوعيان. ثم طُبع منهُ فرض الكهنة بحرف صغير في ايام البابا اينوكنت العاشر و بيوس السادس (١٧٩٧) و بيوس الثامن (١٨٣٠) و بيوس التاسع (١٨٦٣) = ٣ً كتاب خدمة القداس بالسرياني والكرشوني (طُبع ١١ مرّة نعرف منهُ طبعتهُ السابعة سنة ١٨٥٤ والاخيرة ١٨٩٦. واول طبعاتهِ في رومية سنة ١٥٩٦ في مطبعة يعقوب لونا ثم سنة ١٧٣٦ في مطبعة بطرس فرّي (١ = ٤ً كتاب صلوات نهاريّة وليلية المعروف بالشحية (طُبع سبع مرّات طبعتهُ الاولى سنة ١٨٠٨ والثالثة سنة ١٨٣٠ والاخيرة سنة ١٨٨٨. وهذا الكتاب طُبع اوّلاً في رومية سنة ١٥٨٤ في مطبعة دومينيك باسا. ثم في مطبعة المدرسة المارونية سنة ١٦٢٩ ثم في مطبعة انتشار الايمان سنة ١٦٩٣ و ١٧٣٥) = ٥ً كتاب الرسائل من تعريب المطران جرمانوس فرحات (طُبع اربع مرّات طبعتهُ الثالثة سنة ١٨٥٤ والرابعة ١٨٦٤) = ٦ً كتاب قراءات (ريش قريان) من الكتاب المقدس تُتلى ايّام الاحاد والاعياد سنة ١٨٤١ = ٧ً التعليم المسيحي (طبع مرارًا ولا نعرف من تاريخهِ شيئًا) = ٨ً شرح معاني القداس (مثلهُ) = ٩ً كتاب نيقولاوس تيرزاغو اسقف نارني في سرّ التوبة (طُبع سنة ١٨٢٩. صفحاتهُ ٢٥٢ قطع ربع) = ١٠ً كتاب زيارة القربان المقدس للقديس الفنس ليكوري (١٨٣٩) = ١١ً كتاب مرشد الكاهن للاب بولس سنيري اليسوعي (١٨٣٩). وطبع قبل ذلك في الشوير سنة ١٧٦٠ = ١٢ً رتبة قسامة مار انطونيوس الكبير (١٨٧٤) = ١٣ً الكرّاسة اي مبادئ القراءة السريانية (طُبعت ١٢ مرّة آخر طبعاتها سنة ١٨٨٨) = ١٤ً مورد التحقيق في اصول الفراطيق للقس نعمة الله الكفري (طُبع سنة ١٨٧٣ و ١٨٩٦). هذا الى بعض اوراق متفرّقة للتصريف بخدمة سرّ التوبة وفرائض بعض تجامع الرهبانية اللبنانية

فممّا تقدّم يظهر انّ اول كتاب طُبع بالمطبعة المستحدثة في قزحيا كان سنة ١٨٠٨ والاخير سنة ١٨٩٧. وقد صار في ادوات المطبعة المذكورة تحسينات منذ سنة ١٨٧٥. ولنا الامل ان الرهبانيّة اللبنانيّة لا تزال تخدم الكنيسة والوطن بمواصلة طبعاتها المفيدة رغمًا عن انتشار فنّ الطباعة في بلادنا (ستأتي البقية)

١) راجع قائمة مكتبة دي ساسي (الجزء الاول ص ٢٨٢)